رفاف شهر زاد، الثورة العربية / النهضة بعيون النخبة المثقفة الجزائرية "الانتلجنسيا"، المجلد الثاني، العدد الأول، ص٢٥١-٢٧٦.

الثورة العربية / النهضة
بعيون النخبة المثقفة الجزائرية "الانتلجنسيا"

د. رفاف شهرزاد•
جامعة طاهري محمد - بشار/ الجزائر

الملخص:

يعد الربع الأول من القرن العشرين بالنسبة إلى الوطن العربي والجزائر خاصة نافذة للتفتح على حركة الإحياء والتحديث في المشرق العربي، فإذا كان التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤هـ (١٠ حزيران ١٩١٦م)، وهو اليوم الذي أعلنت فيه الثورة العربية الكبرى وبدء النهضة العربية، فإن النهضة أبعد من ذلك عهدًا وأعمق جذورًا، غير أن الثورة قد أعلنت عنها وجسدتها، فاقترنت بها وغدت تاريخا لها، وكانت المنطلق الذي أدى إلى ظهور العرب مجددًا على مسرح التاريخ كأمة ذات شخصية أصيلة مبدعة، متمسكة بحريتها واستقلالها.

بدأت الجزائر تعيش حركة فكرية شبه متواصلة مع الأقطار الإسلامية الأخرى، فمنذ مستهل القرن العشرين وبالرغم من الحصار المضروب على المنطقة من طرف المحتل الفرنسي من محاولة طمس دينها ولغتها، استطاعت النخبة المثقفة الجزائرية أو النخبة النيرة أن توثق صلاتها الثقافية مع المشرق العربي الذي كان يعيش أزهى فترات عطائه الفكري، وتجلت بذلك بوادر العلاقة التأثيرية بين الشرق والغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: النهضة، الثورة العربية، النخبة المثقفة، الجزائر، الإنتلجنسيا، المشرق العربي.

The Arab Revolt/ Renaissance through the eyes of Algerian 'intelligentsia'

Dr. Reffaf Chahrazad
The *University* Tahri *Mohamed* Béchar- Algeria
chahrasaid1973@gmail.com

The first quarter of the 20th century for the Arab world and Algeria in particular is an outlet for the revival and modernization movement in the Arab East. If the day 9 Shaban 1334AH / 10 June 1916 AD announced the Great Arab Revolt and the start of Arab renaissance, this renaissance was more old and had deeper roots, but the revolution announced and manifested it. So, this revolt/ renaissance was the starting point that led to the emergence of Arabs again on the stage of history as a nation with an original and creative personality, adhering to their freedom and independence.

Algeria began to live an almost continuous intellectual movement with other Islamic countries. Since the beginning of the 20th century, and in spite of the French occupier policy to obliterate its religion and language, the Algerian intelligentsia or the enlightened elite has been able to strengthen its cultural links with the Arab East, which was experiencing the brightest periods of its intellectual contribution. Thus the signs of the mutual influence between the Islamic East and West emerged.

Keywords: Ennahda, The Arab Revolution, The Educated Elite, Algeria, Sexuality, the Levant..

المقدمة:

يعد الربع الأول من القرن العشرين بالنسبة إلى الوطن العربي والجزائر خاصة نافذة للانفتاح على حركة الإحياء والتحديث في المشرق العربي، فإذا كان التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤هـ (١٠ يونيو ١٩١٦م)، وهو اليوم الذي أُعلنت فيه الثورة العربية الكبرى وبدء النهضة العربية، فإن النهضة أبعد من ذلك عهدًا وأعمق جذورًا، غير أن الثورة قد أعلنت عنها وجسدتها، فاقترنت بها وغدت تاريخا لها[١].

واقتران النهضة العربية بالثورة على الترك في المشرق العربي ينبه الأذهان إلى الصفة الأولى من صفاتها، وهي اليقظة القومية، وشعور العرب بأن ثمة رابطة قوية تجمع شتاتهم وتؤلف بين قلوبهم. وهذه الرابطة هي القومية العربية التي تجعل منهم كيانًا متماسكًا موصول الشعور متحد الأهداف[٢]. وبدأت الجزائر تعيش حركة فكرية شبه متواصلة مع الأقطار الإسلامية الأخرى؛ فمنذ مستهل القرن العشرين، وبالرغم من الحصار المضروب على المنطقة من طرف المحتل الفرنسي من محاولة طمس دينها ولغتها، استطاعت النخبة المثقفة الجزائرية، أو النخبة النيرة، أن توثق صلاتها الثقافية مع المشرق العربي الذي كان يعيش أزهى فترات عطائه الفكري، وتجلت بذلك بوادر العلاقة التأثيرية بين الشرق والغرب الإسلامي.

الإشكالية الرئيسة للبحث:

تتناول هذه الدراسة الملامح البارزة للفكر الإصلاحي - التجديدي للنخبة الجزائرية من حيث دعوتها للانفتاح على المناهج العلمية الحديثة، وإحياء الفكر الإسلامي الصحيح وتبلور فكرة الدولة واختمارها لدى رواد الإصلاح في الوطن العربي، والحديث عن الإصلاح خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يدفعنا إلى البحث عن المرجعيات التاريخية لفكرة الدولة الحديثة بالجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

ويعد البحث في تحديد مفهوم الدولة الوطنية في الفكر العربي الإسلامي عمومًا، وفي فكر الأمير عبدالقادر الجزائري خصوصًا، من بين أهم المسائل التي شكلت انشطارًا وانشقاقًا في الفكر الإصلاحي الحديث نتيجة الاختلاف حول المفاهيم الأساسية والمنظور الذي قامت عليه فكرة الدولة[٣]. وهذا البحث سيسلط الضوء على الجانب التنظيري لدولة الأمير عبدالقادر، ويخص مميزات ومفهوم الدولة عنده، وكذا الجانب الممارساتي؛ أي مختلف النظم والتنظيمات التي وضعها الأمير لتسيير دولته.

١. المرجعيات التاريخية لفكرة الدولة الحديثة بالجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي:

الدولة ظاهرة حديثة فهي عبارة عن مجتمع له سلطة حاكمة ورقعة أرض تعلو فيها السلطة الحاكمة بشكل شرعي على أي فرد أو جماعة يعيشون في هذا التجمع[٤]، ومن أهم مقوماتها الشعب والإقليم، أي الرقعة الجغرافية والحكومة السياسية. ويقول أرسطو في هذا الصدد أن المجتمعات الإنسانية هي بالضرورة والطبيعة مجتمعات سياسية، فهي لا تستطيع أن تعيش من دون دولة[٥]. ويشير برهان غليون إلى أن الإنسانية لم تشهد في أي حقبة من تاريخها تراكمًا للسلطة ونموًّا لنظم العنف والاستبداد السياسي كما شهدت منذ مطلع العصور الحديثة، وفي القرن العشرين بالذات[٦].

ولنأخذ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب على سبيل المثال، فقد وَجّهت هذه الأخيرة في مذهبها الفكري القائم على التوحيد وفي سلوكها السياسي الكفاحي والحربي معًا، المتمثل في قيام الدولة السعودية الأولى، ضربة عنيفة إلى عناصر السلطة العثمانية، تلك السلطة التي جعلت من التصوف الشعبي منذ البداية أفضل طريقة للاحتواء السياسي وتحييد النخبة المثقفة[٧]. وبنفس الموازنة مثلت فكرة الدولة الحديثة بقيادة الأمير عبدالقادر الجزائري الإشارة الأولى إلى ميلاد الهوية الجزائرية الجديدة، والتي يعود انبعاثها إلى عاملين أساسيين: أولهما الدين الإسلامي والثقافة العربية، وثانيهما المنزع العقلي الحديث الذي حرك الفكر الإسلامي وهزه بقوة في القرن التاسع عشر[٨].

أولاً: الوضع العام في الجزائر قبيل بيعة الأمير عبدالقادر الجزائري:

أحدث الزوال القانوني للدولة العثمانية من الجزائر يوم ٥ يوليو ١٨٣٠م فراغًا سياسيًّا خطيرًا ألقى البلاد في غياهب المجهول. ويذكر الحاج مصطفى بن التهامي أنَّ كبار الغرب بايعوا سلطان المغرب عقب الغزو الفرنسي لوهران بقوله"... وكان عند دخول وهران أجمع عزم أهل وطننا أن يسندوا أمرهم إلى سلطان فاس ... فكاتبوه مستنجدين به شاكين له ضرهم، وحلول النصارى بلدهم، وموافقة الباي حسن وبعض عماله على طاعة دولتهم، ودعاوى أعراب جميع عامة الجزائر في أبعاضهم وتحزيبهم، وكثرة الموت في كل قبيلة وعدم الأمن على المسافر ولو بنفسه، فضلا عن القوافل، إلى غير ذلك من أمر الفوضى والغوغاء..."[٩].

بهذه العبارات المستشيطة عبر بن التهامي عن الفوضى التي عمت ربوع الوطن وإقليم وهران، عقب الاحتلال الفرنسي الذي كان هدفه الأساسي من احتلاله للجزائر ضم

ممتلكات جديدة إلى الإمبراطورية الفرنسية، فقامت السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر عامة، بما فيها الغرب الجزائري، على احتلال الأرض أولاً ثم توطينها بالأوروبيين للمحافظة على مكتسبات الاحتلال وضمان البقاء.

ثانيًا: أسس الدولة الحديثة عند الأمير عبدالقادر[١٠]:

يختصر محمد بن عبدالقادر الجزائري الوضع في الجزائر بقوله: "... لما طال على أهل الوطن الأمد، وتوالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد، وتسلط على بلادهم العدو، ومنعهم القرار والهدوء، فتارة كانوا يدافعون عن البلاد، وآونة كان يقع بينهم الفساد والحرب والجلاد، وسطا القوي على الضعيف، وتطاول اللئيم على الشريف ..."[١١]. وأمام الخطر المحدق بالجزائريين طلب سكان غريس[١٢] من الشيخ محيي الدين[١٣] أن يقودهم نحو الدفاع المشترك، فعرض عليهم أن يبايعوا ابنه عبدالقادر لما أظهره من شجاعة وإقدام، فقد اشتهر بشدة البأس وقوة البدن والفروسية[١٤]، لتدفع الأقدار بالشاب عبدالقادر لاعتلاء الإمارة، حيث تمت مبايعته في معسكر بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٣٢م، وهو في عمر الخامسة والعشرين، وبعد انتخابه سلطانًا للجزائر سنة ١٨٣٢م، أخذ عبدالقادر لقب أمير المؤمنين. وقد أصدر كثيرًا من البيانات إلى الجزائريين داعيًا إياهم للطاعة والدفاع عن وطنهم ضد المعتدين كقوله: "إنكم أيها الجزائريون قد أصبحتم الآن تحت رحمة رومي، يقاضيكم رومي، ويدير شؤونكم رومي ... إن الرومي قد انتهك مساجدكم، وأخذ أحسن أراضيكم وأعطاها إلى بني جنسه، واشترى أعراض نسائكم ... إن يوم يقظتكم قد حان..."[١٥]. ولسنا هنا بصدد استعراض الجانب العسكري للأمير بل نحاول الإلمام بظروف وأسس تكوين الدولة الجزائرية الحديثة.

بدأ الأمير هذه الحقبة الجديدة ببناء الدولة الجزائرية على الرغم من ضيق المعطى الجغرافي والتاريخي، إلا أنها تعتبر رد فعل على الاحتلال الفرنسي، وبعدًا وطنيًّا وقوميًّا[١٦]. فقد قام بتشكيل مجلس للشورى من أحد عشر عضوًا، وقسم البلاد إلى ثماني مقاطعات يحكم كلاً منها خليفة، والمقاطعة إلى دوائر يرأسها آغا، وكل دائرة إلى وحدات إدارية برئاسة قايد بمساعدة شيوخ القبائل. إذن كانت مآثره الأولى ترمي إلى إنشاء دولة عصرية وتوحيدها لسد الفراغ الناشئ عن استسلام الداي ومناورات المتسلطين المحليين[١٧].

والدولة عند الأمير عبدالقادر تتميز بكونها انبثقت عن إرادة شعبية وبيعة شرعية في

عهد كانت فيه الدولة في العالم الإسلامي تعيش على السلطانية والحكم الموروث والتقاليد، فقد كان النقاش يجري بصورة ديمقراطية لا يستعمل فيه الأمير سلطته لكبت أصوات المعارضين له، ولا يستعمل سلطة السيف إلا مع الذين يتعاونون مع العدو[١٨]. ويلخص الدكتور عبدالله شريط[١٩] دعائم دولة الأمير في قوله:

أولاً: ما سماه بالتزام رأي الجماعة أو ما نسميه اليوم برأي الأغلبية.

ثانياً: مبدأ الالتزام بحكم القانون مهما كان بسيطا، فهو القائل "سأحكم والقانون في يدي"[٢٠] والقانون عنده هو الشريعة الإسلامية وحدها.

ثالثًا: الدولة عنده متشبعة بروح الدين وليس بأحكامه الفقهية وحدها.

رابعًا: بالرغم من حالة الحرب كان الأمير يعتبر جبهة البناء الداخلي للدولة أهم من الجبهة الحربية ضد الفرنسيين.

خامساً: تشريك مجلس العلماء معه في الحكم وفي اتخاذ القرارات حتى يكون حكمه ما سماه بحكم الجماعة أو دولة الأغلبية.

سادسًا: ربطه بين الحكم والتوحيد.

وأهم مبدأ من مبادئ الدولة الحديثة تسلحت به دولة الأمير عبدالقادر هو مبدأ المساواة حتى بينه وبين مواطنيه، لقد نجح هذا النوع من الحكم في جعل الشعب يتجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية[٢١].

ويقول المنظر السياسي دي توكفيل De Tocqueville: "إن هذه القوة تبعث الخوف، فعبد القادر هو اليوم بصدد بناء سلطة أكثر مركزية وحركية وقوة...بل تجربة وانتظامًا من كل هذه المحاولات التي تعاقبت عبر التاريخ، في هذا الجزء من العالم، فيجب عمل كل شيء من أجل عدم تركه ينهي هذا العمل الخطير."[٢٢] ويظهر من قوله مدى خطورة الدولة التي أنشأها الأمير على الوجود الفرنسي في الجزائر ومحاولة فرنسا تثبيطها والقضاء عليها رغم اعتراف الجنرال دي ميشيل De Michel بها عبر معاهدة بهذا الاسم في ٢٦ فبراير ١٨٣٤م، حيث اعترف الفرنسيون بسيادة الأمير على غرب ووسط الجزائر واستقلاله واستقباله للقناصل[٢٣]. ويمكن الخروج من هذه التجربة بالخلاصة التالية وهي: ارتباط دولة الأمير بالموروث التاريخي للأمة الإسلامية من حيث البيعة والاحتكام للشرع والسنة النبوية وتوحيد الشعب الجزائري تحت راية الجهاد.

ومن صور المقاومة وأشكالها عند الطبقة المثقفة بالجزائر أيضًا ظهور شخصيات فعالة

بعطائها المتميز كان لها حضور يعكس مكانتها العلمية والأدبية والإصلاحية، وسنلقي الضوء على شخصية -على سبيل المثال لا الحصر- لنقف من خلالها عن كثب على جهود الأدباء و العلماء والساسة، سواء أكانت هذه الجهود فردية أم جماعية منذ الأيام الأولى لوجود المحتل على أرض الجزائر.

فالفكرة الحديثة للكيان الوطني لم تكن مفهومة بوضوح لدى الجماهير الجزائرية ولعل هذه الجماهير لم تسمع أبدًا عن الثورة الفرنسية، ولا عن شعاراتها القومية، ولكن كان هناك بعض الجزائريين المتنورين الذين تابعوا أخبار هذه الثورة وحروب نابليون، وصرخات القومية في أوروبا[٢٤]، ومن بين رواد الحركة القومية الجزائرية حمدان بن عثمان خوجة.

حمدان بن عثمان خوجة:

وُلد بمدينة الجزائر سنة ١٧٧٣م، وهو من الكراغلة (أمه جزائرية، والده تركي)، وترعرع في كنف أسرة عريقة، كان والده فقيهًا وأمينًا عامًّا للإيالة "مكتابجي"، أما خاله فقد تقلد منصب أمين السكة (وزير المالية آنذاك). وقد ساعدته ظروفه هذه على أن يحظى برعاية فائقة وتعليم رفيع، فنهل من مختلف العلوم كعلم الأصول والفقه والفلسفة. وبالرغم من ذلك لم تكتمل ثقافته إلا من خلال رحلاته عبر بلدان إسلامية ومسيحية، فاستوعب أهم الأحداث التي عرفها العالم لا سيما الحركات الفكرية التي أحدثت صراعًا قويًّا بين النظم المحافظة والنظم الليبرالية، والتي كان لها أثرها القوي على شخصيته، ولقد ألم ببعض اللغات الأجنبية كالفرنسية والتركية والانجليزية، وبالتالي تملك المقومات العلمية التي صقلت شخصيته وأهلته لأدوار كبيرة على الصعيد الداخلي والخارجي[٢٥].

*** نضاله وكفاحه:**

قضى حمدان خوجة أغلب حياته في خدمة الصالح العام خاصة بعد احتلال مدينة الجزائر، إذ إنه تبنى سلوك الحذر والتوفيق بين الطرفين الفرنسي والجزائري، وبذل كل ما في وسعه لإقناع الداي بضرورة التفاهم مع الفرنسيين لإبرام صلح قد يجنب الجزائر بعض الكوارث، كما أنه أرسل ابنه للتفاوض مع الجنرال دوبورمون De Bourmont، هذا ولقد كلفه الداي حسين باشا -بعد نكبتي سيدي فرج وسطاوالي- بالبحث عن قائد الجيش وإلزامه بإعادة تنظيم قواته وإرغامه على جمع ما أمكن من الجنود كمحاولة أخيرة لفك الحصار عن مدينة الجزائر.

وفي عهد الاحتلال عينه الجنرال برتران كلوزيل Bertrand Clauzel، عضوا في بلدية الجزائر وفي اللجنة المكلفة بتعويض الأشخاص الذين فقدوا ممتلكاتهم، لكنه عُزل من مناصبه هذه لأنه كان شوكة في حلق الحكومة الفرنسية في الجزائر نظرا لمواقفه الجريئة، مثل رفض السماح لـ "كلوزيل" بالاستيلاء على المساجد والمؤسسات الخيرية. وكان تجريده من جميع أملاكه عاملاً آخر زاد من سخطه على الاستعمار الفرنسي فرفع قضيته هذه إلى المحاكم العدلية العليا بباريس، طمعًا في أن تنصفه من ظلم الحكام الفرنسيين بالجزائر. وبعد انتظار ثلاث سنوات، اعتبرت قضيته ملغاة. إلا أن هذه القضية لم تنقص من عزيمة حمدان خوجة بل شجعته أكثر على الاستمرار في مواجهة المعمرين الفرنسيين، إذ دافع عن احترام ما جاء في وثيقة الاستسلام التي تم التوقيع عليها يوم ٥ يوليو١٨٣٠م، وحارب سياسة الإبادة والاستئصال[٢٦].

استمرت مساعي حمدان خوجة في الخارج فقام بدور الوسيط بين الأمير عبدالقادر والحاج أحمد باي والباب العالي في صالح القضية الجزائرية. ولم يقف عند هذا الحد، بل رفع الاعتراضات والشكاوى إلى ملك فرنسا لويس فليب Louis Phillippe، كما أرسل يوم ٣ يونيو١٨٣٣م مذكرة إلى المارشال سولت Soult، وزير الحربية الفرنسي، ضمنها جميع المخالفات التي ارتكبتها الجيوش الفرنسية في الجزائر. ولتحقيق في الوضع الذي آل إليه الجزائريون أعلن في شهر يوليو ١٨٣٣م عن تشكيل اللجنة الإفريقية[٢٧].

وحاول حمدان خوجة تكوين أول حزب وطني سياسي عرف بلجنة المغاربة أو حزب المقاومة[٢٨]، انتمى إلى هذا الحزب الأعيان والبرجوازيون الذين كانوا على وعي بدورهم السياسي والوطني[٢٩]. وفي رسالة بعثها إلى اللجنة الإفريقية سنة ١٨٣٣م، ذكر فيها: "...أيها السادة كصديق للإنسانية وجزائري، فإن لدي معرفة عميقة بالمشكل الجزائري، وبأصول عيوبه، وبسبب الحرب، وبالوضع الحقيقي للبلاد قبل وبعد الاحتلال الفرنسي...، إن الجزائريين لا يستحقون أن يُرمى بهم خارج المجموعة العالمية، إنهم جزء من العائلة الإنسانية، وإن الدم الذي يجري في عروقهم، أيها السادة، له نفس الحرارة التي في دمكم. فهل ستشفقون على حالتهم؟ ليس هناك أي حل سوى تغيير الوضع لاستعادة النظام وميلاد ثقة جديدة في الجزائر..."[٣٠]. وبهذا الخطاب الشديد اللهجة لا نحسب أننا نبالغ إن قلنا أن حمدان خوجة يعد أول جزائري في ذلك العهد، بل أول مغربي تجرأ وانتقد السياسة الفرنسية بحجج منطقية وقرائن ثابتة، مستخدمًا في ذلك أسلوبًا تغلب عليه روح التفتح وغزارة الاطلاع[٣١].

وحسب المؤرخ أبو القاسم سعد الله فحمدان خوجة شكل حزب المقاومة في المرحلة الأولى للاحتلال أو المقاومة في الجزائر القديمة التي لجأت عمومًا إلى الاحتجاج والشكوى، في حين عمدت الجزائر الجديدة إلى تقديم مطالب معينة، موضحة بأنها كانت تطالب بذلك باعتباره حقًّا أخلاقيًّا وسياسيًّا[٣٢]، ومن أقطاب هذا التيار النخبوي الجديد بداية القرن العشرين نجد:

* **الأمير خالد الجزائري:**

المولد والنشأة: هو خالد بن الهاشمي بن الحاج الأمير عبدالقادر بن محيي الدين المعروف بالأمير خالد، ينحدر من سلالة زعيم المقاومة العسكرية خلال القرن التاسع عشر، الأمير عبدالقادر، من مواليد بلاد الشام في ٢٠ فبراير ١٨٧٥م، نشأ وترعرع في وسط عائلة ذات علم وإيمان، قضى فترة طفولته وجزء من شبابه بالشام، فتكون وتلقى تعليمه على يد شيوخ وعلماء مساجدها ومعاهدها الدينية، فاكتسب من المعرفة والعلوم التي ساهمت في تكوين شخصيته[٣٣]. ولم يكد ينهي رحلته العلمية حتى قرر والده الرحيل إلى أرض أجداده الجزائر بعد الحصول على الموافقة من السلطات الفرنسية العليا سنة ١٨٩٢م، حيث استقروا بمدينة الجزائر، ومنها واصل دراسته فالتحق بثانوية لويس لوقران بباريس التي تستقطب أبناء الأمراء والأعيان، ليلتحق بعدها بالكلية العسكرية سان سير سنة ١٨٩٣م[٣٤].

برز الأمير خالد على الواجهة السياسية في الجزائر سنة ١٩١٩م مدافعًا عن بلده في مواجهة السلطة الاستعمارية. وقد مثل منعطفًا جديدًا في العلاقات الجزائرية الفرنسية، وكان دوره رياديًّا في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر المستعمرة. وقد تزعم الأمير خالد المرحلة الثالثة من تاريخ العلاقة بين الجزائريين والمستعمرين، ووصف ذلك بالمبادرة التي أسمع بها الأمير خالد صوت الجزائر بعد أن خمد ذكرها منذ سنة ١٨٧١م، وما تلاها من نهب وتشرد واضطهاد من المستعمر وتوسع الأقلية الأوربية على حساب السكان الجزائريين[٣٥].

وظهر الكره العلني والعميق للاستعمار من قبل الأمير خالد أثناء أدائه للخدمة العسكرية عندما اتصل بحركة الشبان الجزائريين، وحاول العمل معهم فألقى عدة محاضرات في باريس أشاد بمجد وعروبة أجداده وبلاده، وحاول أن يشرح للرأي العام الفرنسي الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها الجزائريون من ضرائب فادحة ومظالم مرهقة وحقوق مهضومة وأحكام زجرية قاسية[٣٦].

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، قدم جورج كليمنصو[٣٧] Georges Clemenceau قانون ٤ فبراير ١٩١٩م، الذي تضمن إصلاحات منها إلغاء القوانين الزجرية في الشمال والجنوب، والسماح لبعض الجزائريين بالترشح لمناصب إدارية كانت حكرا على الأوروبيين، وغيرها من النقاط. لكن الأمير خالد رفضها وأصر على ضرورة الاحتفاظ بالأحوال الشخصية الإسلامية للجزائريين[٣٨].

وقد وقع انقسام في قيادة جماعة النخبة سنة ١٩١٩م أثناء الانتخابات البلدية في العاصمة، والتي جرت كنتيجة للإصلاحات الجديدة، وكان الزعيمان المتنافسان هما الدكتور ابن التهامي الذي كان على رأس الاندماجيين، والأمير خالد الذي كان على رأس المنادين بالمساواة داخل الأحوال الشخصية للجزائريين[٣٩].

الأمير خالد ومؤتمر الصلح:

زُجّ بالعرب في فصول الحرب العالمية الأولى دون أن يكون لهم قرار المشاركة أو التأثير في نتائجها، وكان الفرنسيون أول من استخدم الجنود العرب من المغاربة في باكورة المعارك، على رأسهم الفيلق الجزائري. وعُرضت القضية العربية بأسلوب دبلوماسي عميق أمام أكبر محفل دولي عرفه التاريخ حتى ذلك الوقت، فقد مثل العرب الأمير فيصل بن الحسين في مؤتمر الصلح الذي عُقد في باريس في ١٨ يناير ١٩١٩م، وفي إطار دفاع الأمير خالد عن القضية الجزائرية عبر عن ذلك من خلال عريضة مطالب تقدم بها إلى الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون Woodrow Wilson جاء فيها:

"يشرفنا أن نقدم إلى إنصافكم السامي وإلى روح العدل فيكم عرضًا موجزًا عن الوضع الحالي للجزائر الناتج عن احتلال فرنسا لها منذ ١٨٣٠م، فأثناء معركة غير متساوية، ولكنها رغم ذلك كانت مشرفة لآبائنا، ناضل الجزائريون طيلة سبعة عشر عامًا بمثابرة وقوة لا مثيل لهما بهدف رد المعتدي والعيش في استقلال، ولكن حظوظ السلاح لم تكن يا للأسف في صالحهم. ومنذ تسع وثمانين سنة التي عشناها تحت السلطة الفرنسية ازددنا فقرًا بينما ازداد المنتصرون غنى على حسابنا..."[٤٠].

نلاحظ من خلال هذه العريضة أن الأمير خالد يملك نبرة حادة في مواجهة الاستعمار، وهو في ذلك يربط نضاله بنضال أجداده خلال القرن التاسع عشر في مقدمتهم الأمير عبدالقادر، حيث كان دائمًا يستحضر جهاد زعماء المقاومة العسكرية وهذا في حد ذاته له بعد وطني يعبر على عدم الخضوع والاستسلام للاستعمار وغطرسته ووجوب التصدي بمختلف

الوسائل سياسية أو عسكرية. ونلاحظ كذلك أن الأمير يشعر بمعاناة الشعب الجزائري والظلم والاضطهاد الذي يتعرض له منذ ١٨٣٠م إلى جانب التفقير والتهميش بقوله: "ازددنا فقرا بينما ازداد المنتصرون غنى على حسابنا..."، وذلك بفعل القوانين العقارية التي نتج عنها آثار متلاحقة أدت إلى تفكيك النسيج الاجتماعي القبلي، وحاول الأوروبيون النفاد إلى عمق أراضي الجزائريين من خلال عملية الاستيطان والتوسع من خلال استيلاء الإدارة الاستعمارية على ملايين هكتارات الجزائريين. وحاول الأمير خالد تدويل القضية الجزائرية وفضح الاستعمار الفرنسي في تعامله مع الأهالي الجزائريين بالزّجّ بهم في غياهب الحرب العالمية الأولى بقوله: "رغم ذلك فإن الشعب الجزائري قد قدم ضريبة الدم وأن مئات الآلاف قد سقطوا في مختلف ميادين القتال، محاربين رغم أنوفهم ضد شعوب لا مطمح لهم فيها..."(٤١).

والأمير خالد شأنه في هذه المطالب شأن الأمير فيصل الذي مثل العرب في مؤتمر الصلح، فقد قال فيصل ما نصه: "إنني أخشى كل تقسيم، وأن مبدئي الرئيس هو وحدة العرب، وهي ما ناضل العرب من أجله، لذا فإن كل حل آخر يقيم من قبل العرب باعتباره تقسيمًا للغنائم بعد المعركة، ناضل العرب من أجل التوحيد، وإني آمل في أن ينظر المؤتمر إليهم باعتبارهم أمة مضطهدة انتفضت ضد مستعبديها، يطالب العرب بالحرية فقط، وهم لا يرضون عنها بديلاً..."(٤٢).

إن الأمير خالد طالب بالمساواة في الحقوق ورفض سياسة الإدماج بالتخلي عن مقومات الشخصية الوطنية والإسلامية من دين ولغة، وبالرغم من قصر مدة نضال الأمير خالد إلا أن نضاله أسهم في إرساء قواعد النضال السياسي في الجزائر آنذاك وذلك بتسليم الراية للجزائريين لمواصلة النضال السياسي من أجل القضية الوطنية. وتضامنت النخبة الجزائرية المثقفة مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي للشعب الجزائري الذي وقع عليه الاحتلال وسلبت ممتلكاته من خلال أدبياتها خاصة فنّ الصحافة.

٢. تضامن النخبة الجزائرية المثقفة مع القضايا العربية من خلال أدبياتها خاصة فنّ الصحافة:

أولاً. النشاط الصحفي للنخبة المثقفة الجزائرية:

عرف الجزائريون فن الصحافة منذ ١٨٣٠م باللسان الفرنسي، ومنذ ١٨٤٧م باللسان العربي، وتسنى للجزائريين ولوج فنّ الصحافة مع دخول الفرنسيين الذين بدؤوا الغزو

الفكري إلى جانب الغزو الاستعماري[٤٣]، فظهرت شخصيات فاعلة كان لها حضور في ميدان الصحافة، تركت رصيدًا فكريًّا من كتب ومقالات في أعمدة الصحافة الجزائرية أو العربية. ومن الأقلام الصحفية البارزة في الجزائر السيد أحمد البدوي، الذي أُسندت له سكرتارية تحرير جريدة المبشر العربية التي أصدرها الفرنسيون في عام ١٨٤٧م، وسليمان بن الصيام المليانى[٤٤]، الذي يعد الصحفي الجزائري الأول رغم أن مقالاته لم تتجاوز الخمس حلقات[٤٥]، ومحمد السعيد علي الشريف البجاوي، وهو أول الكتاب الجزائريين الذين كتبوا سلسلة من المقالات ذات الطابع الصحفي، بلغت أكثر من سبعة عشر مقالاً. وظهر أول مقال له في جريدة المبشر الجريدة الفرنسية الحكومية الناطقة باللسان العربي في الجزائر يوم ٣٠ يناير ١٨٥٣م، وكان داعيًا لنشر العلم والمعرفة والثقافة التي بها تزدهر الحضارة وتتقدم الأمم[٤٦].

أما الصحافة الوطنية، وعلى الرغم من الحصار الشديد المفروض عليها من طرف المستعمر، فقد استطاعت أن تشق طريقها إلى الوجود وتبلّغ الرسالة، وكان بعض تلك الصحف -إن لم نقل أغلبيتها- يسفر عن وجهه الإصلاحي، مثلما هو شأن جريدة الجزائر لعمر راسم الصادرة سنة ١٩٠٨م، التي لم تعمر طويلاً إذ كانت الرقابة لها بالمرصاد، وجريدة الحق الوهراني الصادرة سنة١٩١١م، وجريدة ذو الفقار التي أصدرها عمر راسم سنة ١٩١٣م باسم مستعار هو ابن منصور الصنهاجي. كما صدرت قبل الحرب العالمية الأولى جريدة الفاروق لعمر بن قدور الجزائري[٤٧].

إن مجموع تلك الصحف، وغيرها مما لا يتسع البحث لذكره، كان له عظيم الأثر في بعث الحركة الإصلاحية بل النهضة الوطنية في جميع مجالاتها الفكرية الاجتماعية والسياسية. فعلى النقيض مما كان يصبو إليه المحتل راحت الصحافة -وخاصة الإصلاحية منها- تبثّ روح الإصلاح والوطنية والجهاد في نفوس أبناء هذا الوطن وحتى الوطن العربي الإسلامي.

ثانياً: مظاهر البعد القومي في أدبيات النخبة المثقفة الجزائرية:

رغم محاولات الإدارة الفرنسية الهادفة إلى عزل الجزائر عن العالم العربي الإسلامي، وتمزيق المرجعية الحضارية للأمة الجزائرية وتشويه هويتها العربية الإسلامية، إلا أنها عجزت عن زعزعة عقيدة الجزائريين الراسخة في انتمائهم الطبيعي وظل البعد العربي الإسلامي وقضايا المغرب والمشرق الإسلاميين ضمن اهتمامات النخبة منذ وقت مبكر[٤٨].

وكان ذلك نتيجة القواسم المشتركة مع العالم العربي والإسلامي المتمثلة في الضيم الاستعماري والتفاعل التاريخي واللغوي والديني وحتى المصيري[٤٩]. وقد ازداد ارتباط الجزائريين بالبلدان العربية الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومن الأقلام البارزة التي ارتبطت عضويا بقضايا الأمة الإسلامية نجد الصحفي عمر بن قدور الجزائري ١٨٨٦-١٩٣٢م[٥٠]، الذي عاصر كل المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في مستهل القرن العشرين، ويظهر تفاعل بن قدور مع هذه الحوادث من خلال ما كان ينشره في جريدة الحضارة التركية، والأبيات الشعرية المقتبسة من قصيدة (يا شرق)، التي يظهر من مطلعها مدى تأثر "بن قدور" بالحالة المزرية التي وصل إليها المشرق الإسلامي:

يا شرق ما لعقول قومك لا تعي ..... نصحا من الماضي إلى المستقبل

صالت عليك مطامع الغرب الذي ..... أرضعته لبن الترقي الأكمل[٥١]

أما البشير الإبراهيمي[٥٢] فاتخذ في سنة ١٩١١م قرار الهجرة إلى المشرق العربي، الذي كان مقصد طلاب العلم والمعرفة، من كل أنحاء البلاد العربية والإسلامية، لما كان يتوفر عليه من مؤسسات علمية ذات مستوى علمي مرموق، بالمقارنة مع نظيراتها في المغرب العربي. وفي سن الواحد والعشرين، قصد الإبراهيمي المدينة المنورة التي سبقه إليها والده الشيخ "السعدي الإبراهيمي" فرارًا من القمع والاضطهاد الفرنسيين، فمر بتونس وليبيا، ثم القاهرة التي أقام فيها ثلاثة أشهر، حضر خلالها دروس نخبة من علماء الأزهر من أمثال الشيخ "سليم البشري" (١٨٦٧–١٩١٧م)، والشيخ محمد بخيت (١٨٥٤-١٩٣٥م)، واتصل بأمير الشعراء "أحمد شوقي" وبشاعر النيل "حافظ إبراهيم"، كما حضر عددًا من الدروس في دار الدعوة والإسلام التي أسسها الشيخ "رشيد رضا". وقد مكنته تلك الاتصالات والدروس من الاطلاع على الأفكار الإصلاحية والتأثر بها، وخاصة أفكار "رشيد رضا"، وفي المدينة المنورة درس فيها على كبار علمائها -الوافدين من أنحاء العالم الإسلامي- علوم التفسير والحديث والفقه والتراجم، ثم أصبح يلقي الدروس للطلبة في الحرم النبوي، ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العامة والخاصة باحثًا عن المخطوطات[٥٣].

ولم يقتصر نشاط الإبراهيمي في دمشق على التدريس والبحث والتنقيب في المكتبات العامة والخاصة، بل شارك في النشاط السياسي، وأبدى مواقف وآراء إزاء الأوضاع السياسية التي كانت تشهدها سورية في تلك الفترة الحساسة جدًّا من تاريخ المنطقة، فقد رفض تأييد

نقيب الأشراف "جمال باشا" في دمشق، الذي طلب منه أن يسخر قلمه ولسانه لخدمة سياسته الاستبدادية والقمعية واحتقاره للعنصر العرب؛ وهو موقف نحسبه جريئًا بالنظر إلى ما عرف عن ذلك القائد، من قسوة وبطش بمعارضيه وخصومه(٥٤). كما انضم إلى الكثير من الأندية والجمعيات السورية التي كانت تسعى إلى توحيد صفوف العرب، ومنها بصورة خاصة "النادي العربي" الذي أسسه الدكتور "عبد الرحمان شهبندر"، أحد قادة الرأي، وزعماء الثورة العربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي . كما أيد الثورة العربية والأمير فيصل، الذي دخل دمشق سنة ١٩١٨م(٥٥).

وبعد الرحلة المشرقية الأولى (١٩١٢- ١٩٢٢م)، عاد الإبراهيمي إلى وطنه ووجده -كما تركه- يئن تحت وطأة الاستعمار والجهل والفقر والتخلف، وفي ذهنه مشروع نهضوي يدخل الأمة الإسلامية في دائرة التقدم والتحديث وينطلق من الإسلام، متأثرًا بأفكار الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، شريطة أن يستعمل الأسلحة الثلاثة في المعركة وهي العقل والعلم والعدل(٥٦). وقد وصف الشيخ الإبراهيمي العرب والمسلمين في عصره بفاقدي الشعور والإحساس لما هم فيه من انحطاط وتقهقر، يقفون موقف المتفرج، لا يعرفون ماذا عليهم أن يفعلوا، كأنهم ليسوا من أهل الكوكب، أو غرباء عن هذا العالم، حالهم كحال أهل الكهف، في الوقت الذي قطعت فيه الكثير من الأمم، أشواطًا كبيرة في العمران والاقتصاد(٥٧).

نلاحظ مما سبق أن النخبة المثقفة حاولت بأقلامها خدمة التيار الإصلاحي فكانت سببًا في نشر الوعي، ومحاربة الجهل، وتصحيح العقيدة، وترسيخ فكرة الانتماء الحضاري العربي الإسلامي للمجتمع الجزائري في فترة حالكة حاولت فرنسا فيها سلخ هوية هذا المجتمع. ويبحث العنصر التالي في العوامل المساعدة لظهور النهضة في الجزائر.

٣ -العوامل الداخلية المساهمة في بروز النهضة الجزائرية:

أولاً: العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية:

ارتبط الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى بسياسة الاحتلال الاستيطاني بالجزائر، مما يعني أن مسألة التعمير والاستيطان أساسية ضمن السياسة الاستعمارية، حتى يتحقق استقرارهم وبقاؤهم المطلق، ومن الطبيعي أن الاستيطان لا يحدث إلا بتوفر عوامل تكون متكاملة مع بعضها البعض، وعلى رأس هذه العوامل نجد "الأرض". ووجوب حيازتها لكونها

عنصر مادي يجب توفره في يد السلطة الفرنسية لتستطيع فتح الباب أمام الهجرة الأوروبية[٥٨]، لتوطين عنصر جديد في الأرض الجزائرية، وفي المقابل إقصاء العنصر البشري الأصلي.

وأظهر الكثير من الفرنسيين استعدادًا كبيرًا للهجرة إلى الجزائر والعيش فيها مباشرة بعد نجاح الحملة العسكرية الفرنسية، بل أن هذا الاستعداد تعدى حدود الفرنسيين وشمل استقدام العناصر الأوروبية إليها. وهذا ما أكد عليه الجنرال برتران كلوزيل Bertrand Clauzel[٥٩] في مجمل تصريحاته، فقد قال إنه مقتنع أن إقليم مدينة الجزائر، الذي صار بأيدي فرنسا هو مستعمرة هامة، تعوض الفرنسيين لخسارتهم سان دومينيك[٦٠]، الأمر الذي أصر عليه توماس روبير بيجو Thomas Robert Bugeaud في تصريحاته، ففي ٢٣ فبراير١٨٤٠م قال: "إن الغزو بدون استيطان سيكون عقيمًا"[٦١]، وتصريح يوم ١٤مايو ١٨٤٠م قائلاً: "أينما تتوفر المياه الصالحة والأراضي الخصبة يجب تركيز الكالون وتوزيع الأرض عليهم وجعلهم ملاكين دون محاولة للتعرف على أصحابها"[٦٢]. ونستنتج من خلال هذه التصريحات الشديدة اللهجة رغبة فرنسا في تثبيت نفسها في الجزائر عن طريق الاستيطان لان الاحتلال العسكري ما هو إلا مرحلة مؤقتة.

وأصدر الحاكم العام بالجزائر بتاريخ ٨ سبتمبر ١٨٣٩م قرارًا يحدد أملاك الدومين وحصرها في المادة الأولى: (كل المساكن والمحلات والدكاكين والحدائق والأراضي التي كانت سابقًا تحت سلطة الداي، البايات والأتراك الذين غادروا التراب الجزائري، أو تلك التي وُقفت على مكة أو المدينة المنورة تدخل في الدومين العام، وقد مُنحت مهلة ثلاثة أيام لكل الأشخاص الذين يحوزون هذه الأملاك للتصريح بها وإلا تعرض أصحابها إلى غرامة مالية)[٦٣]. ويظهر من خلال هذا النص القانوني أن الإدارة الاستعمارية ارتكزت على مبدأ -حسب نظرها- أن الأرض في الدولة الإسلامية تعود ملكيتها للبايلك، وبالتالي فالأرض الجزائرية التي كانت بيد السلطة الجزائرية تنتقل إلى يد الإدارة الفرنسية باعتبارها وريثة النظام الجزائري، لذلك فهي ترى في مصادرة الأملاك التي كانت بيد السلطة الجزائرية عملاً مشروعًا[٦٤]. ثم أصدر الحاكم العام بتاريخ ٧ ديسمبر ١٨٣٠م قرار منح للدومين العام كل المداخيل العائدة من المؤسسات المرتبطة بمكة والمدينة المنورة والمساجد، وكتب مارسي إرنست Mercier Ernest عن مصير الأوقاف :"في الحقيقة حينما ثم إلغاء الحبوس من طرف الدولة فإننا نكون قد مارسنا سرقة حقيقية بهذا الإجراء"[٦٥].

* **الحجز والمصادرة:** كان الحجز والمصادرة أداة فاعلة من أدوات الإدارة الاستعمارية في

الجزائر للضرب بقوة على أيدي القبائل الثائرة أو المساندة للمقاومات الشعبية حيث استغلّ من طرف سلطة الاحتلال الفرنسي كعقوبة قمعية وتعسفية في آن واحد، لتحقيق غاية مزدوجة تتمثل في قمع التمردات تحت طائلة تحقيق الأمن بالمستعمرة، وفي نفس الوقت اتخاذ الحجز والمصادرة كمبرر للحصول على مزيد من الأراضي الضرورية لتقديمها لمشاريع الاستيطان[٦٦].

ثانيًا: انعكاسات السياسة الفرنسية على المجتمع الجزائري:

* **الاجتماعية**: خلّفت السياسة الفرنسية آثارًا وخيمة جدًّا على البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري، ونحاول بقدر الإمكان اختصار هذه الآثار، خاصة ما تعلق منها بالفرد الجزائري حتى لا نخرج عن مرمى البحث وعلى رأس هذه النتائج نجد:

- تفكك البنية القبلية وهجرة الأرض: شكلت الأرض جوهر الصراع بين الجزائريين والكالون منذ الوهلة الأولى، فقد عملت فرنسا على فرنسة الأرض الجزائرية قبل فرنسة الفرد الجزائري ولو نظريًّا، مما يعني أن المشروع الفرنسي كان لا يهمه الفرد الجزائري بقدر ما يريد الاستيلاء على أرض الجزائر الغنية بثرواتها[٦٧]، وفي هذا الصدد كتب أحد الكتاب الفرنسيين حيث قال: "في الحقيقة إنه في الكثير من الحالات كنا نتجاهل الجانب الأهلي في مشاريعنا الاستيطانية، كنا نفكر وكأنه لا وجود للعرب إطلاقًا...كنا نفكر وكأن الأرض شاغرة تمامًا، وهي تحت تصرفنا"[٦٨] ، إذن نلاحظ أن الفرد الجزائري كان خارج أجندة المشرع الفرنسي.

* **الاقتصادية:** عملت القوانين العقارية على زعزعة حياة الجزائريين بشكل خطير حيث نتج عنها آثار متلاحقة أدت إلى تفكيك النسيج الاجتماعي القبلي، وحاول الأوروبيون النفاد إلى عمق أراضي الجزائريين من خلال عملية الاستيطان والتوسع في نظرنا من خلال استيلاء الإدارة الاستعمارية على ملايين هكتارات الجزائريين بتأثير من القوانين العقارية.

- تحويل نمط الإنتاجمن نظام إنتاج زراعي تقليدي إلى نظام إنتاج رأسمالي: إن التأثير الحقيقي الذي كانت تسعى فرنسا لتجسيده بين الفلاحين الجزائريين هو حملهم على القناعة بالمزروعات الصناعية الاستعمارية وتقويض تقاليدهم الفلاحية، فأدخل المستوطنون الأوروبيون أنواعا جديدة من المزروعات كالقطن والدخان والحبوب.
- سيطرة الكولون على الزراعة وتحول الفلاح الجزائري إلى أجير في أرضه: فمنذ بداية

الاحتلال اتضح أن ثقافتين مختلفتين ميزتا الحياة العامة في الجزائر، أدتا إلى تطبيق نمطين فلاحين في الجزائر، الأول التزم به المسلمون الجزائريون والثاني جاء به الأوروبيون[٦٩]، وفي رأي مولار غيسلان Mollard Chislaine "إن الجزائري كان محكومًا إلى الثقافة الإسلامية التي تفرض عليه التزام القناعة وبالتالي الاكتفاء الذاتي في الإنتاج الفلاحي وفي مقدمته الحبوب، زيادة على هذا فإن حوالي ٣٠٪ من الجزائريين لا يفلح كل منهم أكثر من ١٠ هكتارات[٧٠]. ويربط غيسلان التحولات التي حدثت بالجزائر عقب الاحتلال بالهجرة الأوروبية وظهور القرى الزراعية التي استحدثها الكالون. وعموما هذا الرأي مبالغ فيه فصاحبه قد تجاهل أن الجزائر طالما زودت فرنسا بالحبوب في أزماتها المتلاحقة.

* **الأوضاع الدينية والثقافية**: كان للجانب الديني أثر كبير في احتلال الجزائر، فمن الأسباب المهمة التي دعت فرنسا إلى الغزو هو عودة الكنيسة إلى نشاطها ومحاولة إعادة الاعتبار إلى المسيحية وإنقاذ المسيحيين من أيدي القراصنة الجزائريين -حسب تعبيرها- ففرنسا التي اعتبرت نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية[٧١] كانت تهدف إلى نشر رسالة حضارية في الوسط الجزائري، وتعليمه اللغة الفرنسية ليكون أقرب إلى منابع الحضارة الغربية.

وهذا التسلل عبر مسألة الهوية والانتماء كان واضحًا أن الهدف منه هو استمالة الجزائريين لاستبدال الحماية العثمانية بالاحتلال الفرنسي، خاصة بعد أن أصبحت الخلافة العثمانية ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن مناطق نفوذها الشاسعة. ومن نتائج السياسة الثقافية والدينية للاحتلال الفرنسي:

- انتشار الجهل والأمية بشكل لا مثيل له، والتشكيك في هوية الشعب الجزائري من خلال ازدواجية الشخصية الثقافية تبعا لازدواجية اللغة المتحدث بها، وهجرة المثقفين إلى الخارج، خاصة إلى المشرق العربي أين كانت الضغوط على الثقافة العربية أقل مما هي عليه في الجزائر.
- ضياع الكثير من مصادر المعرفة كالمخطوطات والتحف الفنية التي استولى عليها المستشرقون وغيرهم إما بغرض دراستها أو بغرض إبعادها عن الوعي العام، لأن أغلبها كان دينيًّا أو لغويًّا.

- تشجيع البدع والخرافات لتكون بديلا عن التفكير العلمي الواعي الذي عملت النخب الثقافية الجزائرية على زرعه من خلال المدارس والجمعيات.

أما العوامل الخارجية فعلى رأسها تأثير نداء الجامعة الإسلامية بالجزائر وعودة الاتصال الثقافي مع المشرق الإسلامي، من الممكن تعريف الجامعة الإسلامية بأنها حركة تدعو إلى التضامن بين المسلمين من أجل تحقيق الوحدة والقوة بينهم في وجه التوسع الاستعماري الأوروبي. أما وسائلها فتقوم على الإصلاح الديني والاجتماعي وذلك بتمجيد العقل، والعودة إلى الإصلاح الديني أي العصر الذهبي للإسلام على عهد النبي محمد ﷺ. وأصحاب هذه الحركة هم جمال الدين الأفغاني وتابعه محمد عبده ورشيد رضا وآخرون. ولقد تمتع بعض زعماء الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى بسمعة طيبة في الجزائر خاصة بعد زيارة محمد عبده للجزائر سنة ١٩٠٣م. ويشير الكاتب يحيى جلال بخصوص زيارة محمد عبده للجزائر أنها لم تشِ بنتائج مباشرة ولم ينتج عنها مظاهرات أو اضطرابات، ولكنها تركت أثر في بعض النفوس التي استطاعت فهم هذا المصلح الشرقي[٧٢].

ورغم الحصار الذي فرضه الاستعمار الفرنسي على الجزائريين فإن صحف المشرق كانت تصل إلى الجزائر ومنها مجلة المنار **لرشيد رضا** وكانت هذه الصحف تهاجم السياسة الفرنسية على معاملتها للأمة.

الخاتمة:

تزامنت حركة الانتعاش الفكري والأدبي في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع مناخ سياسي فكري جديد خصوصًا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، حين مضت الجزائر تزداد انفتاحًا على العالم الخارجي -عربيًّا وإسلاميًّا وأوربيًّا- فأسهمت في ذلك عوامل مختلفة، داخليًّا وخارجيًّا، فقد مضى الحس الوطني يتنامى بين الجزائريين، كما اتسعت الصلة بين الشرق والغرب عبر روافد مختلفة، وقنوات عديدة مثل الصحافة، والحجاج، والجنود، والمهاجرين إلى فرنسا بالخصوص، كما غذت هذا الحس الوطني ببعده القومي الواضح سياسة الغرب في الهيمنة على العالم الإسلامي ومنه الوطن العربي.

واستطاعت النخب الجزائرية أن تبرهن عن وطنيتها، وتثبت ذاتها رغم الأسلوب الهادئ والمراوغ أحيانا الذي انتهجته في تعاملها مع سلطات الاحتلال، وإننا لنقف على أسماء كبيرة كان لها عظيم الأثر في التاريخ الثقافي للجزائر الحديثة، ويمكن تصنيفها في نخبتين أساسيتين هما:

- نخبة مسترجعة للتراث الثقافي الأصيل مثل محمد بن أبي شنب (١٨٦٩- ١٩٢٩م) الذي كان له دور بارز في مجال التعليم بالمدارس والجامعات المتوفرة آنذاك.
- نخبة داعية للتفتح والتثقيف مثل الحكيم محمد نقاش (١٨٥٤-١٩٤٢م) ومحمد بن إبراهيم (١٨٥٠-١٩٢٨م).

إن هاتين النخبتين عاشتا ظروفًا ثقافية صعبة في ظل سياسة استعمارية مدعومة بآلة عسكرية رهيبة، لهذا كله وجدناها تطالب -بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- بضرورة تحرير البلاد والعباد من الغبن الاجتماعي والثقافي الذي يسببه الاحتلال.

حواشي البحث

- أستاذة محاضرة بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة طاهري محمد -بشار- الجمهورية الجزائرية.

(١) قدري قلعجي، الثورة العربية الكبرى ١٩١٦-١٩٢٥، ط٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص١٣.

(٢) نفس المرجع، ص١٤.

(٣) إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، عدد١٤، ديسمبر، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٠، ص٨٧-٨٨.

(٤) عبدالعزيز ركح، ما بعد الدولة الأمة عند يورغن هابرماس نموذجا، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١١، ص٢٣.

(٥) برهان غليون، المحنة العربية، الدولة ضد الأمة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط ٤، بيروت، ٢٠١٥، ص٣٥.

(٦) نفس المرجع، ص١٥.

(٧) برهان غليون، نفس المرجع، ص٥٤.

(٨) نفس المرجع، ص٥٢.

(٩) الحاج مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبدالقادر وجهاده، تح وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، ٢٠٠٩، ص١٢٦.

(١٠) ولد عبد القادر بالقيطنة قرب معسكر عام ١٨٠٨م، تلقى تربيته بالزاوية التي كان يتكفل بها أبوه محيي الدين ثم تابع دراسته بأرزيو ووهران على يد علماء أجلاء حيث أخذ منهم أصول العلوم الدينية، الأدب العربي، الفلسفة، التاريخ، الرياضيات، علم الفلك والطب. وكان على علم ودراية تامين بعلماء أمثال أفلاطون، أرسطو، الغزالي، ابن رشد كما تبينه كتاباته. وقد تفانى طوال حياته في تجديد علمه وإثراء ثقافته، توفي الأمير في المنفى بدمشق بتاريخ ٢٦ مايو ٨٨٣م أين شاركت جماهير غفيرة في مراسيم تشييع جنازته. ينظر المصدر السابق، نفسه.

(١١) الجزائري، محمد عبدالقادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر، ج١، تح ممدوح حقي، ط٢، دار اليقظة، بيروت، ١٩٦٤، ص٩٣.

(١٢) غريس: منطقة غريس تسمى بأم عسكر يسكنها عرب الفتح القدامى أو ما يسمى الحشم والقرشيون المسمون بالأجواد لأن الجود، وإن كان من شان العرب كلهم فهو في قريش أرسخ ، ومنهم الأشراف الأدارسة الحموديون المسمون أولاد سيدي دحو بن زرفة، وعرش أولاد سيدي محمد بوجلال وعرش سيدي أحمد ابن علي وهو من الشرفاء الحسينيين، وعرش سيدي بن يخلف، وعرش سيدي قادة وهو عرش الأمير عبدالقادر.

(١٣) بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر عام ١٨٣٠م من طرف الفرنسيين، شارك محيي الدين وابنه عبد القادر المقاومة الشعبية التي خاضها الأهالي الجزائريون، وقد أثبت خلالها عبد القادر شجاعة وحنكة نادرتين، تجتمع بعدها قبائل المناطق الغربية لاختيار قائد لها يدافع وإياهم على البلاد حيث يقع اختيارهم على محيي الدين، غير أن هذا الأخير يعتذر بسبب سنه المتقدمة ويقترح بدلاً منه ابنه عبد القادر يبايع أميرا عليهم في تجمع ضخم بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٣٢.

(١٤) الجزائري، محمد عبدالقادر، نفسه.

(١٥) سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية ١٩٠٠ -١٩٣٠، ط ٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ص٤١.

(١٦) القومية هي الرابطة التي تربط أبناء الأمة الواحدة في الوطن الواحد، وتولد تلك الرابطة عند أبناء الأمة الواحدة شعورًا بأن ثمة ما يجمعهم إلى بعضهم ليكونوا أمة واحدة.

(١٧) جيلالي صاري، دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبدالقادر، مجلة الثقافة (عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر)، السنة الثالثة عشر، عدد ٧٥، مايو - يونيو ١٩٨٣، الجزائر، ص١١٥.

(١٨) عبدالله شريط، مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير عبد القادر ونظرية الشيخ ابن باديس، مجلة الثقافة (عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبدالقادر)، السنة الثالثة عشر، عدد ٧٥،ماي -جوان ١٩٨٣، الجزائر، ص٢٦٧.

(١٩) أحد المؤسسين للخطاب التنويري والعقلاني في الجزائر وأحد مؤسسي جامعة الجزائر المستقلة، فهو من الإعلاميين الكبار الذين كونتهم الثورة الجزائرية بثقلها الوطني والإقليمي والدولي، ولد عبدالله شريط ببلدية مسكيانة أم البواقي بالشرق الجزائري سنة ١٩٢١، سافر إلى دمشق وبيروت وهناك التحق بالجامعة السورية سنة ١٩٤٧ بكلية الأدب قسم الأدب عربي لكن تحول إلى قسم الفلسفة بنفس الجامعة وقد تخرج منها بشهادة الليسانس في الفلسفة سنة ١٩٥١، التحق سنة ١٩٥٥ بالبعثة السياسية لجبهة التحرير الوطني التي تشكلت بعد اندلاع الثورة اسندت له مهمة الترجمة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية. وقد كلف بعد إصدار جريدة "المقاومة" وجريدة "المجاهد" لسان حال جبهة التحرير الوطني بتحرير الافتتاحية والتعليق في الصحيفة وترجمة المقالات المنشورة في الصحافة الدولية عن الثورة الجزائرية وظل يمارس هذه الوظيفة حتى فجر الاستقلال سنة ١٩٦٢، التحق بعد ذلك بجامعة الجزائر استاذا بقسم الفلسفة وظل بها إلى اخر يوم في حياته مدرسا للحكمة وحكمائها. كما كان أستاذا مؤطر لأجيال من الطلبة في رسائل الماجستير والدكتوراه، للدكتور عبدالله شريط مؤلفات في حقول معرفية مختلفة في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع والسياسة، بلغ عددها ستة عشر، ولقد وافته المنية يوم ٢٠١٠/٠٧/٠٩.

(٢٠) عبدالله شريط، نفس المرجع، ص٢٧٠.

(٢١) نفسه.

(٢٢) إسماعيل قيرة وآخرون، مستقبل الديمقراطية في الجزائر، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، مارس ٢٠٠٩، ص٥١.

(٢٣) شالز هنري تشرشل، حياة الأمير عبدالقادر، ترجمة وتقديم وتعليق، أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، ٢٠١١م، ص١١٣.

(٢٤) سعد الله أبو القاسم، مرجع سابق، ص٣٠.

(٢٥) حميدي أبو بكر الصديق ،القضية الجزائرية في الخطاب السياسي لحمدان بن عثمان خوجة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، بالمسيلة، – العدد: ٠٩ – يوليز ٢٠١٥، ص٢٧٥.

(٢٦) موفدة من حكومة باريس إلى الجزائر في ١٨٣٣/٢٣/٠٣م يرجع الفضل في تكوينها لحمدان خوجة وذلك لتعاين الوضع وتقدم تقريرا يتضمن اقتراحات حول مستقبل الجزائر.

(٢٧) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص ٢.

(٢٨) نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،ط٣،مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص١٣٧.

(٢٩) سعد الله أبو القاسم، مرجع سابق، ص٢٩.

(٣٠) سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع، ص٤٢٤-٤٢٥.

(٣١) عميراوي حميدة، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية ١٨٢٧-١٨٤٠م، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٩٨٧، ص١٤٣.

(٣٢) سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع، ج٢، ص ١٧٣.

(٣٣) حباش فاطمة، البعد الوطني في نضال الأمير خالد، مجلة عصور الجديدة، العدد ٢٣، عدد خاص، صيف أوت ٢٠١٦، ص٢٠١.

(٣٤) المرجع نفسه.

(٣٥) مصطفى الأشرف: الأمة والمجتمع، ترجمة ،حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٧٩. ينظر: خليفي عبد القادر، الأمير خالد (١٨٧٥ -١٩٣٦م)، مجلة عصور الجديدة، العدد٢٣، عدد خاص، صيف أوت ٢٠١٦، ص١٥٣.

(٣٦) محمد قنانش، محفوظ قداش، نجم الشمال الإفريقي (١٩٢٦ – ١٩٣٧) (وثائق وشهادات لدراسة الحركة الوطنية الجزائرية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٤، ص١٨؛ حباش فاطمة، مرجع سابق، ص٢٠٣.

(٣٧) جورج كليمِنصو (١٨٤١-١٩٢٩) رئيس وزراء فرنسا ورجل الدولة عَمِل رئيساً لوزراء فرنسا عدة مرات، أهمها أثناء الحرب العالمية الأولى.

(٣٨) غانم بودن، مساهمة الأمير خالد في بناء الحياة السياسية بالجزائر (١٩١٩- ١٩٢٤م)، مجلة قضايا تاريخية، المجلد الأول، العدد الثالث، ٢٠١٦، ص٧٦.

(٣٩) سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع، ج٢، ص٢٨٩.

(٤٠) حباش فاطمة، نفسه.

(٤١) نفسه.

(٤٢) عبدالمجيد كامل عبد اللطيف، دور فيصل الأول في تأسيس الدولة العراقية الحديثة ١٩٢١ -١٩٣٣، أطروحة دكتوراه، إشراف كمال مظهر أحمد، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٠، ص٢٩.

(٤٣) الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، ج٥، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤، ص١١- ١٣.

(٤٤) سليمان بن الصيام الملياني: من مواليد مليانة، ومن المعتقد أن أباه كان من الأعيان، كان من بين الذين استقبلوا نابليون عندما زار الجزائر للمرة الثانية عام ١٨٦٥، وهو يحتل منصب الأغاوية. نفس المرجع، ص٣٠.

(٤٥) منشورة في كتيب للكاتب الزبير سيف الإسلام، فنّ الكتابة الصحفية عند العرب في القرن التاسع عشر، مطبوعات المركز العربي للدراسات الإعلامية، دمشق، ١٩٨١.

(٤٦) الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، ج٥، مرجع سابق، ص٣٣.

(٤٧) محمد بن صالح ناصر- الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ إلى ١٩٥٤ -دار آلفا للنشر- الجزائر -٢ط- ٢٠٠٦، ص٦٨.

(٤٨) قرين مولود، البعد القومي في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة البصيرة، العدد الثاني، الجزائر، ٢٠١٣، ص١٧٧.

(٤٩) قرين مولود، البعد القومي في فكر النخبة الجزائرية في مطلع القرن العشرين "عمر بن قدور الجزائري نموذجًا"، حوليات التاريخ والجغرافيا، العدد السادس، المدرسة العليا للأساتذة، ديسمبر ٢٠١٢، ص١٨٨.

(٥٠) عمر بن قدور الجزائري (١٨٨٦ -١٩٣٢م): هو مصلح وصحفي ولد في الجزائر العاصمة، تتلمذ على يد الشيخ عبدالقادر المجاوي، وابن سماية، وابن زكري، سافر إلى تونس ومصر، راسل عدة صحف مصرية كاللواء والمؤيد، وصحف مشرقية كجريدة الحضارة التركية، وفي الجزائر اصدر جريدة الفاروق وجريدة الصديق تميزت كتاباته بالطابع الديني والتربوي والاجتماعي وقد عارض بعض السياسات الفرنسية خاصة قانون التجنيد الإجباري، ينظر: قرين مولود، البعد القومي في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي، المرجع نفسه.

(٥١) ابن قدور، يا شرق، جريدة الفاروق، العدد١١، ٠٩ مايو ١٩١٣م، نقلا عن قرين مولود، البعد القومي في فكر النخبة الجزائرية في مطلع القرن العشرين "عمر بن قدور الجزائري نموذجا"، مرجع سابق، ص١٩٨.

(٥٢) ولد في يونيو ١٨٨٩ ببلدة رأس الوادي، دائرة سطيف. تعلم القرآن ببلدته، كما أخذ المبادئ العلمية من دين، ولغة، عن عمه، هاجر إلى الحجاز مع أهله قبيل الحرب العالمية الأولى، وعاشر المدينة، وبها درس العلوم وفنونها وتفوق في جميعها، وقد أعانته ذاكرته القوية على التحصيل، واستيعاب جميع ما كان يدرس يومئذ للطلاب. واجتمع بالمدينة المنورة بالأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس عام ١٩١٣، ولعلهما قد استعراضا حال الجزائر، وما ينبغي أن يكون لهما من عمل عند العودة إليها. وسافر إلى الشام سنة ١٩١٨، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ومكث بدمشق مدة، اشتغل فيها بإلقاء المحاضرات، فكان محل أصحاب إعجاب وتقدير من طلابه وزملائه، توفي في ٢٤ مايو ١٩٦٥م، نعاه الأستاذ الجليل محمد بهجة البيطار قال: "وقد كان لنعيه رنة أسف، وحزن شديدين عند عار في فضله وأدبه، إذ قضى مدة دعا فيها إلى تدريس اللغة والأدب، فكان المجلي في دروسه، وتخرج عليه عدد وافر ، كان لهم أثر ظاهر في مجتمعنا..."، محمد بهجة البيطار، آراء وأنباء، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عالم الجزائر، مجلة المجمع العلمي العربي، العدد رقم ٠٢، ٠١ أبريل ١٩٦٦، ص٣٧١.

(٥٣) أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الأول، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧، ص٩-١٠.

(٥٤) بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في أثار البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، الجزء الأول، رسالة دكتوراه، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص١٣٠.

(٥٥) بشير فايد، نفسه.

(٥٦) أحمد طالب الإبراهيمي، نفس المصدر، ص١٤.

(٥٧) أحمد طالب الإبراهيمي، نفس المصدر٥٧.

(٥٨) حباش فاطمة، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (١٨٤٤ -١٨٧٠)، تيارت، سعيدة، جيرفيل، البيض. نماذجا، اطروحة دكتوراه، اشراف بن نعمية عبد المجيد، جامعة وهران، السنة الجامعية ٢٠١٣- ٢٠١٤م، ص٢٣٨.

(٥٩) الكونت برترون دي كلوزيل (١٧٧٢- ١٨٤٢) عسكري وسياسي ورجل أعمال، خلف دي بورمون قائد حملة الاحتلال، أصبح حاكمًا عامًّا للجزائر من أغسطس ١٨٣٥ إلى يناير ١٨٣٧، كان يملك مزرعة من أكبر المزارع لبابا علي قرب العاصمة، قسمت إلى عدة قطع وأحواش منها حوش شاوش وحوش بويعقون، يضم في مجموعه ١٣٧ مجمع للزراعة بـ٤٠٠٠ هكتار، بعد فشله في حملة قسنطينة ١٨٣٧/٠٢/١٢ عزل وعاد إلى باريس وبقي فيها إلى وفاته سنة ١٨٤٢. ينظر الصادق دهاش، الملكية الخاصة وتأثيرها على الجزائريين في القرن ١٩، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول: العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠- ١٩٦٢، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر،٢٠٠٧، ص١٠٥.

(٦٠) Bertrand, Clauzel, *observation du generalclauzel sur quelques actes de soncommandement aalger. a-j.denain*,paris, 1831, p.08.

(٦١) حسان أحمد، مرجع سابق، ص٣٢.

(٦٢) Charles-Henri Favrod,*La revolutionalgerienne*, paris 1959, pp.10-11.

(٦٣) الطاهر ملاخسو، نظام التوثيق في ظل التشريعات العقارية بالجزائر ١٨٣٠- ١٩٦٢، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠- ١٩٦٢، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢٩.

(٦٤) صالح حيمر، مرجع سابق، ص٣٢.

(٦٥) Ernest Mercier,*la propriété foncière musulman en algérie,im.a-jourdan*,alger; p30.

(٦٦) عثمان زقب، السياسة الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠- ١٩١٤ (دراسة في أساليب السياسة الإدارية)، رسالة دكتوراه، إشراف صالح لميش، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية، ٢٠١٤- ٢٠١٥، ص٦٢.

(٦٧) الصادق دهاش، الملكية الخاصة وتأثيرها على الجزائريين خلال القرن ١٩م، مرجع سابق، ص١١٤.

(٦٨) صالح حيمر، ص٦٦. جاءت هذه المقولة في كتاب:la politique indigéne de bugeaud ، للمؤلف. Roger Germain

(٦٩) عميراوياحميدة، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (١٨٣٠- ١٩٥٤م)، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر ٢٠٠٧، ص٤٠-٤١.

(٧٠) Chislaine Mollard, *L'évolution de la culture et de la production du BLé en Algérie de 1830 à1939*, Larose, paris, pp31-34.

(٧١) بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية في الحزائر ١٨٧١-١٨٣٠، دار حلب، الجزائر، ٢٠٠٩، ص١٥.

(٧٢) جلال يحيى، تاريخ المغرب الكبير الفترة المعاصرة وحركات التحرير والاستقلال، ج٣، دار القومية للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٦، ص١٠٤٣.